رحلة في برقة

الجزء الثاني

عزيز سوريال عطية

الكاتب المصري – العدد 7

تاريخ النشر: 1/ أبريل، 1946م

رئيس التحرير: طه حسين

سنوات الإصدار:1945 إلى 1948م

نوعية الإصدار: شهرية

بلد الإصدار: مصر

رحلة فى برقة

٢ (١)

الى المرج : برقة وطلميثة

الطريق من الشحات إلى المرج حوالى مائة كيلومتر ، ومن المرج إلى طلميثة حوالى الثلاثين . والمرج هو الاسم المتداول اليوم لمدينة برقة ، كما أن طلميثة هى بطلميوسة أو بطلاميدمدينةالبطالمة . والأولى من مؤسسات الإغريق فىالقرن السادس قبل الميلاد ، كما ان الثانية أخذت اسمها عن بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦—٢٢١ ق . م .) الذى ورث برقة بحكم زواجه من بيرينيس ابنة أميرها . وكانت طلميثة منذ تأسيسها ميناء برقة ؛ ولكنها سرعان ما بلغت المرتبة الأولى بين مدن برقة الخمس (بنطابوليس) وتفوقت على برقة نفسها لاهتمام البطالمة بأمرها ، وتشجيعهم لسكانها .

والطريق إلى برقة يناطح فى جماله وروعته الطريق إلى رأس الهلال ، لا سيما فى وادى الكوف [٢] حيث تضيق ممراته ضيقاً شديداً ، وترتفع الجبال على جانبيه ارتفاعاً عموديـًا شاهقاً مروعاً ، وتنفغر من بطن الجبل على علو كبير كهوف واسعة وعميقة ، هى الكهوف التى سكنتها فرق المجاهدين العرب ضد الاستعمار الإيطالى ، أنزلوا إليها بالحبال ، وأتاهم إخوانهم من أعلى الجبل بالمؤن والعتاد ، فاستطاعوا من مخابئهم الحصينة أن يقطعوا على الإيطاليين الطريق دون الوصول إلى إقليم برقة الشرقى سنين عدة ؛ ولم يتمكن الغزاة من كبح جماحهم

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) الكوف : جمع كاف . يقال إنها مشتقة من أصل أوربى cave ومعناها كهف .

واستئصال مقاومتهم إلا بعد أن نزلوا من البحر عند درنة ثم ساروا عليهم من الشرق والغرب فى وقت واحد تحرسهم طائرات الهجوم من علٍ . أما طريق طلميتة فيبدأ قبيل الوصول إلى برقة شرقاً ، وهو طريق شديد الوعورة ، قائم على أساس الطريق الذى شقه الإمبراطور تراجان فى القرن الثانى الميلادى مع تعديلات طفيفة .

وتقع برقة فى سهل زراعى خصيب متسع الأرجاء ، اشتهر فى التاريخ القديم بإنتاج الغلال وتربية الخيول . وآثار برقة قليلة ، منها مقبرة إغريقية قديمة منقورة فى الصخر على بعد خمسة كيلومترات عند بداية المرتفعات الشرقية ، ثم بقايا كنيسة مسيحية من بنيان الإمبراطور جستنيان حوالى سنة ٥٣٥ م ، تشبه عمدها كنيسته فى أبولونيا . وعلى الساحة الكبرى التى تتوسط المدينة والتى تدعى الآن « ساحة مونتجومرى » يوجد حصن كبير بناه الأتراك سنة ١٨٤٠ من الحجر الرملى ، وهو الآن المركز الرئيسى للحكومة البريطانية الحربية بإقليم برقة ، وعند مدخله توجد عدة لوح وشواهد بالخط الكوفى القديم المزخرف . وبجانب ذلك الحصن يوجد « الأوتيل » الكبير الذى تأنق الإيطاليون فى بنائه ، وجلبوا له الرخام الملون والأثاث والرياش وأدوات الترف من إيطاليا ، وهو الآن نادى الضباط ، نزلت فيه فرأيته قطعة من أحسن منازل أوربا . وليس فى المرج إلا شارع رئيسى واحد هو الذى يقطع الساحة الكبرى أمام الحصن العثمانى ويمر بالسوق والجامع حيث الحى الوطنى بأزقته وبيوته المتلاصقة . أما الحى الأوربى فهو حول الحصن ، وتمتاز بيوته بالسعة والنظام والبساتين الفسيحة .

وإذا كانت برقة فقيرة فى آثارها القديمة ، فإن طلميتة على العكس من ذلك غنية بها . وبقدر تفاهة القرية الحديثة كان عز طلميتة القديم واتساع أرجائها ؛ فإن ما بقى منها يدل على أنها كانت تمتد من الساحل فى عرض السهل إلى التلال الجنوبية ، وأنها من حيث تنسيقها لا تقل عن مدن البطالمة الأخرى بما فيها الإسكندرية ؛ فشوارعها مستقيمة ، ومبانيها فاخرة ، يدخلها الزائر من الباب الغربى القديم الذى لا زال قائماً إلى ارتفاع يزيد عن ستة أمتار ، وعلى جدرانه نقوش إغريقية وعربية كثيرة ، وفى الجنوب آثار جسر للمياه كان يصل عيناً جارية على بعد أربعين كيلومتراً فى الجبل بخزان الماء العظيم الذى يعد من أعظم

وأكمل الأمثلة لخزانات الماء الرومانية ، ينزل الإنسان إليه من مدخل معين ، فيجده عبارة عن سبع حارات عميقة تقطع سبعاً أخرى فى زوايا قائمة ، عروشها معقودة وسميكة . وفوق هـذا الخزان السوق (الفوروم) ، يتوسطه هيكل وبعض أعمدة قد تكون جزءا من معبد لعبـادة القياصرة . والمدينة عامرة بآثار المبانى اليونانية الرومانية الفخمة ، قام الأثريون بإصلاح أحدها وهو قصر لثرى من أثريائها لا زالت تلوح عليه علامات البذخ والترف بأجلى مما تظهر به حتى فى قصر جانوس العظيم بأكروبول قورينا . وربما كان أمتع ما فيه الفسيفساء البديعة التى تزدان بها أرض حجراته من حيث دقة الصنع وجمال الرسوم النباتية والحيوانية وبهجة ألوانها ، لا سيما صورة لرأس ميـدوسا الميثولوجية تعد تحفة بما فيها من حياة وبريق وألوان زاهيـة صافية . ووسط هذا القصر نافورة وحمام للسباحة يحيط بهما صـف من العُمُد الكبيرة المزخرفة الجميـلة الصناعة . وفى دور سفلى توجد الحمامات والمخازن ومساكن الخدم وعدد من الحوانيت الجانبية بحذاء الطريق العام الخارجى . وفى طلميتة غير ذلك آثار لدار تمثيـل يونانية وملعب رومانى ومدرج لألعاب المصارعة . غير أنه يفوق كل ذلك مبنى الكنيسة الكاتدرائية العظمى التى ترجع إلى القرن الرابع المسيحى ؛ لأن بانيها هو الأسقف سينيزيوس آخر شخصية كبيرة فى عالم الأدب والفلسفة الإغريقى القديم . ومن آثاره المنشورة تتكون مئات من الرسائل اليونانية البليغة التى يندب فيها حظ بلاده فى عصر الاضطراب والفوضى عند ما اكتسح البربر مدائن برقة الخمس بعد أن هدم اليهود حصونها وذبحوا أهليها . وقد اهتم الإيطاليون بكنيسة سينيزيوس اهتماماً عظيما ، وأعادوا بناء كثير من أجزائها كما كانت . وهى بلا نزاع من الأمثلة الفريدة للمبانى الدينية المحصنة فى عهد القلاقل والثورات . فمدخلها عبارة عن منفذ صغير لا يسمح لأكثر من رجل أو رجلين بولوجه ، وحوائطها الخارجية كحيطان الحصون فى ضخامتها ، ويعلوها طريق لسير الحراس وجنود المقاومة ، وفى ردهاتها آبار وصهاريج لاختزان المياه تحت الأرض لتموين حاميتها إذا طال حصارها . وفوق كل ذلك يقول علماء الآثار إن بينها وبين الكنائس المصرية الرومانية شبهاً ملموساً من ناحية الفن والمعمار وتنسيق ردهاتها وهياكلها وقبابها مما لا يتسع المقام للكلام عنه . وفى طلميتة دار للتحف تحتوى على كثير

من التماثيل والأعمدة والرسوم الملونة وقطع من الفسيفساء وغير ذلك مما تجدر رؤيته ويصعب حصره فى هذا المقام .

طقرة وبنغازى

هذه هى المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة . والمسافة ما بين المرج وبنغازى حوالى مائة وعشرة من الكيلومترات . وتقع طقرة على أقل من منتصف الطريق إلى بنغازى . وطقرة مثل طلميتة كانت فى الماضى إحدى موانى مدينة برقة ، ولكنها الآن أعظم اتساعاً ، وأكثر تنسيقاً ، وألطف هواء ، وأخف روحاً من طلميتة ، إلا أن آثارها عبارة عن أكوام لم تمسها بعد يد الحفارين والأثريين المنقبين بجد ، فهى لذلك حقل بكر للبحث والإنتاج .

وطقرة الحديثة قائمة إلى الداخل بعيداً عن الساحل ، فى حين توجد المدينة القديمة بجوار قلعة تركية على شاطئ البحر . وحوائط المدينة البيزنطية كاملة الدائرة من عهد الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى ، وليس فى برقة القديمة بأكملها ما يضارع هذا الحائط فى احتفاظه بكيانه . وداخل المدينة من ناحية الحصن العثمانى الطريق الرئيسى الذى يخترقها من الشرق إلى الغرب وهو مستقيم مرصوف بالحجارة ، وإلى جانبه من الناحية الشرقية الجنوبية آثار هيكل وعمُدٍ رخامية ورءوس عمد مهشمة عليها صلبان بيزنطية تدل على أن بالمكان كنيسة من ذلك العصر . كما يلاحظ أن على بعض أجزاء تلك العمد نقوشاً عربية من عهد متأخر . وفيما دون ذلك لا يكاد الرائى يميز شيئاً معيناً بين خرائب المدينة التى يختلط فى تلالها وأكوامها الرماد بالحجارة والأعمدة المتكسرة . وخارجها نحو الشرق على مقربة من الناحية الأخرى للحصن التركى ، توجد آثار مقبرة منقورة فى الصخر ، كشف عنها طيار بريطانى فى العهد الأخير ، ونقل محتوياتها المتواضعة من عظام وآنية فخارية وزجاجية وأدوات مختلفات إلى دار التحف الصغيرة فى منزل الإدارة بالمدينة الحديثة .

أما بنغازى فيدركها المسافر فى أرض منبسطة ، وفى حدودها الجنوبية الشرقية منطقة الملاحة التى تغمرها مياه ملحة قليلة الغور ، يستخرجون منها الملح على غرار ماهو حاصل فى بحيرة مريوط عند الاسكندرية . ويلاحظ الانسان

لأول وهلة من دخوله إياها أن ما نالها من وطأة الغارات الجوية لم ينل مدينة أخرى بشمال إفريقية غير طبرق . فانك لا ترى طريقا من طرقها إلا والمتخرب من مبانيه يعدو العامر . أما العمائر الكبرى التى بالغ الإيطاليون فى الإسراف على بنائها وتجميلها مبالغة تفوق حد الحسبان ، فما لم يتهدم منها بكامله ، أصابت القنابل بعض أجزائه ، وأصلح البريطانيون الأجزاء الباقية ليستعملوها للدواوين وللسكنى . وميناء بنغازى العظيم أصبح قليل النفع لكثرة الغارق فيه من السفن . وربما كانت الأحياء التى لم تصبها القنابل باصابات كبيرة تنحصر فى منطقتى الكاتدرائية العظمى والسوق الوطنية . وجو بنغازى غير جذاب تغلب عليه الحرارة التى ليس فيها من جفاف الهواء ما يشفع لها ويخفف من وطأتها .

وبالرغم من أن بنغازى ذات مكانة فى التاريخ القديم ، حينما كانت تحمل اسم برنيقة Berenice زوجة بطليموس الثالث ، فهى خالية من الآثار التى تدل على مجدها التليد . وكل ما يمت لذاك التاريخ بصلة هو أن الأقدمين حددوا موقع الجحيم والنعيم كما وردا فى أساطير الآلهة الميثولوجية ، عند نقطة قريبة من بيرينيس فى جهة تدعى « ليتى » على عشرة كيلو مترات من بنغازى على طريق مطار بنينة الشهير .

وهذا الجحيم الميثولوجى (١) يختلف عن جهنم ذات السعير التى نعرفها فى كتبنا المقدسة ، فهو عبارة عن مغارة عميقة فى بطن الأرض واصلة إلى العالم السفلى . نزلت عشرات الدرج إلى فوهتها مع زميل يقودنى بين أحراش كثيفة ، فإذا ما وصلنا إلى حيث تبدأ الرحلة الأبدية أوقدنا مشاعلنا ، وهبطنا فى الغار متوكلين على الله عز وجل ، طالبين السلامة ، وكلما تعمقنا فيه ضاق بنا الموضع ، وانخفض الصخر المتدلى على رءوسنا ، فانحنينا وانحنينا حتى كادت ظهورنا تنفصم من شدة الانحناء . وأخيراً علا الصخر وانفرج المكان فجأة ، ولكن الظلمات تكاثفت حتى كأن سوادها قد امتص ضوء المشاعل ، فكنا نرى لهبها فاتراً ولا نرى مدى الضوء من حلكة هذا الليل الأبدى ، ثم عبرنا قنطرة صغيرة ، وإذ بقائدى يصيح بى أن قف ، ولن تستطيع إلى ما بعد ذلك سبيلا .

---

(١) مغارة ليتى التى يسميها العرب الشق الكبير اعتبرها الكتاب الأقدمون أمثال بلينى وسترابون وبطليموس الجغرافى بما فيها من المياه نهراً من أنهار الجحيم الميثولوجى تشرب منه أرواح الموتى فتنسى أفراحها وأتراحها فى الماضى على الأرض .

فشعرت بقشعريرة غريبة لا أدرى أهى ترجع لعامل الخوف الغريزى الذى يعترى المرء فى أعماق الظلمات وهو لا يعرف إلى أين يسوقه القدر وتسوقه القدم ، أم هى البرودة التى يشعها ذلك الماء المثلج الذى يملأ بقية المغارة إلى مسافات طويلة ، والذى من أجله استوقفنى زميلى عند تلك النقطة ؟

عدنا أدراجنا من جديد نتخبط فى تلك الظلمات ، وطلبت من صديقى أن يرينى جنة الآلهة اليونانية التى حدثنى عنها لتعويض ما نالنى من جحيمهم ، فصعدنا إلى دنيانا نحن الأناسىّ ، وعبرنا الطريق المجاورة ، وإذا بصديقى يشير إلى مساحة من الأرض الحرام ، كتب على بابها أنها مخصصة لوزارة الطيران الحربى ، ثم قال : هذه هى الجنة[1] التى تنشد رؤيتها . فكان بذلك حسن الختام ، إذ لم تمض أيام معدودة حتى امتطيت متن الطائرة التى أقلتنى إلى أهلى ووطنى من مطار بنينة فى هذه المنطقة بعينها .

عزيز سوريال عطيه

---

(١) هذه المنطقة معروفة فى كتب الميثولوجيا باسم Hespérides ويقال إن زيوس وهرقل وغيرهما من آلهة اليونان كان لهم مغامرات مشهورة فى بساتينها .